مجلة علمية نصف سنوية محكمة
تعنى بالسيرة النبوية وأدبياتها

تنشر البحوث بثلاث لغات:
العربية، والإنكليزية، والفرنسية

تصدر عن العتبة العباسية المقدسة
دار الرسول الأعظم ﷺ

السنة الرابعة.. المجلد الرابع.. العدد السابع
لسنة ٢٠٢٤م ١٤٤٦هـ

بِنية العائلة في الخطاب النَّبوي

أ.د.هادي شندوخ حميد السعيدي

قسم اللغة العربية / كلية التربية للعلوم الإنسانية / جامعة كربلاء، العراق
hadialsaidi45@gmail.com

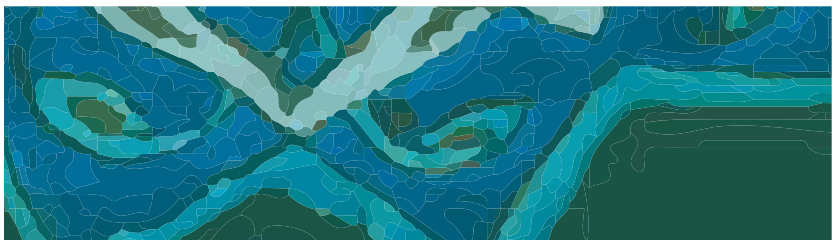

مجلة نبيّنا
Journal Homepage: http://nabiyuna.com
ISSN: 2789-4290 (Print) ISSN 2789-4304 (Online)

بِنية العائلة في الخطاب النَّبوي

هادي شندوخ حميد السعيدي[١]

١ جامعة كربلاء/ كلية التربية للعلوم الإنسانية / قسم اللغة العربية، العراق ؛

hadialsaidi45@gmail.com

دكتوراه في النحو والدلالة / استاذ

تاريخ التسلّم : ٤ / ٢/ ٢٠٢٤
تاريخ القبول : ١٩/ ٤/ ٢٠٢٤
تاريخ النشر : ١ / ٦ / ٢٠٢٤
السنة(٤)-المجلد(٤)
العدد(٧)
ذو القعدة ١٤٤٦هـ
آيار ٢٠٢٤م
DOI: 10.55568/n.v4i7.17-49

CC BY NC

الملخص

يأتي بحث بنية العائلة في الخطاب النبوي لسبر عوالم تشكيل التأسيس الصحيح للارتباط المشروع وبيان أنماط العلاقات الداخلية وحركة الوظيفة لكل فرد من افراد العائلة، في نسق من التحليل لمقولات النبي ﷺ لإبراز الدلالات الكلية الكامنة في خطابه ﷺ الخطاب المؤسس لممارسة حياتية ناجحة،مطبوعة بطابع توجيهي فاعل يمضي بالأفراد والمجتمعات خطوات وأشواط إلى الأمام بعيداً عن الحاضر المتصدع بالأشكال غير المشروعة والمنتجة لفلسفة بناء العائلة .

الكلمات المفتاحية: مفهوم العائلة - الخطاب النبوي - العلاقات المشروعة - أنماط العلاقات - الوظيفة .

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين محمد وآله الطيبين الطاهرين، امَّا بعد:

يمثل النظام العائلي مرتكزا رئيسًا في التصور البشري، فالعلاقة الفطرية في تشكيل الرابطة الزوجية من الرجل والمرأة ليكونا أبًا وأُمًّا، نسقٌ طبيعي تألفهُ النفس الانسانية وتنمو به الحياة وتستمر. وهذا التكامل المؤسس بفعل الزوجية كفيلٌ ببقاء وحدة النوع الانساني وتكاثره بالشكل المشروع المقنن وفق الرؤى الدينية والقانونية والاجتماعية، حيث تتحدد هوية الأسرة وطبيعتها بهذا الاقتران الوجودي .فتتشكل قيم وهويات ومنظومة أخلاق من تلك النواة المسماة بـ (العائلة)، لذلك احيطت بتصورات تشريعية واخلاقية واجتماعية وثقافية ثبَّتتْ ديمومتها وفاعليتها في الحياة. على الرغم من تحولات كبرى أرادت تغيير نمطها وبنيتها وإضعاف نسيجها بقصد أو بغير قصد .

ومن ثم يمكن القول إنَّ تثبيت فعل تأسيس العائلة في أصله وغايته هو تأمين الحاجات العاطفية في إطار مشروع ومقبول،قال تعالى : ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ (الروم :٢١). دون تغييب وظائف أخرى لها أهميتها في تلك الوثاقة المشتركة كديمومة النسل البشري، وإرساء نمط العلاقات المتبادل بين المجتمعات المختلفة .

فالعائلة هي النشاط المتكامل لائتلاف المجتمع وترابطه دون تبعثر أو إنقطاع، في سياق من اللقاء النفسي والبايلوجي والروحي والاجتماعي، لها قيمتها وقدسيتها في الحياة، لذلك هدف الاسلام الى إزالة كل العوائق المانعة عن تشكيلها أو تحول دون تحقيقها، فكل الاعتبارات الطبقية والعنصرية والاجتماعية عمدَ على استبدالها بقيم انسانية وحضارية مشروعة في هذا الطريق، فكان الدين والخلق دعوة التأسيس المباحة بديلاً عن الاعتبارات الاخرى من المال أو الطبقة الاجتماعية أو العرق وغيرها، حفاظًا على الديمومة وتعميقا للمحتوى الذي تنشده العائلة في بعدها الكبير .

فعطاء الاسرة مرتبط بقيمها الروحية الساندة، لانَّ تلك القيم هي العمود الفقري لمواجهة تحديات الحياة المختلفة، وهي البوصلة لإرساء أُسس التماسك الداخلي من التعاون والالفة

والمحبة والايثار.

وبلا شك أنَّ تلك الاعتبارات والآداب الاخلاقية والاجتماعية والاقتصادية هي المنطلق في حفظ وحدة النوع الاجتماعي المتمثل بالأسرة، الذي بدأ يتعرض الى التفكك في ظل بروز الحضارة المادية، ونظرتها الى الاسرة نظرة مغايرة بعيدة عن الفهم الصحيح لفلسفتها وتشكيلها وصيرورتها .

من ذلك الفلسفة الماركسية الشيوعية التي لا تؤمن بمشروع الاسرة، وترى أنَّ حاجة المرأة الى الرجل هي حاجةٌ اقتصادية نتيجة ضعف المرأة وعدم قدرتها على تلبية احتياجاتها لذلك يكون وجود الرجل ضرورة لسد تلك الاحتياجات .

وفي ظل التطورات الحديثة وفسح المجال أمام المرأة لإثبات هويتها ووجودها، اقتصاديا واجتماعيا وجنسيا، خارج المألوف من التشريعات والمباديء السليمة يمكن للمرأة ان تستغني عن الزواج وتشبع غرائزها الجنسية بالطرق غير المشروعة، فضلا عن تأثيرات التكنلوجيا الحديثة واسقاطاتها على أفكار الافراد وخلق ميول حب الذات والاستئناس بالوحدة وصعوبات الحياة الاقتصادية خلقت مبررا لعدم تكوين رابطة اسمها العائلة . وهي أهم التحديات التي تواجهها الاسرة في عالم اليوم .

على خلاف ذلك يرى الاسلام أنَّ الاسرة هي نواة تشكيل المجتمعات وهي القانون الطبيعي لامتداد الحياة في نسق تكاملي مشروع، يتجاوز الحاجة البايلوجية الى الفهم الروحي لتلك العلاقة المقدسة، وهي السبيل الى تقدم الامة ورقيها في منظومة الاخلاق والعلم والقيم الاصيلة، بواسطة التشريعات والانظمة المقننة لمسيرتها الفاعلة .

والمنطلق في قراءة الفهم الصائب لبنية العائلة ومايتعلق بها من مشروع كوني فاعل ومستمر هو التجربة النبوية الرائدة فهما وإيضاحا وتوجيها لمباديء السماء المتمثلة بالنص القرآني، فمن اقواله ﷺ تستنطق مقومات التأسيس والبناء والتوجيه، تشريعًا واعتقادًا واخلاقًا، فالوعي بمشروعية العائلة ونظامها الكوني لن يشكل عاملا في تنمية المجتمعات دون إدراك أو إحاطة بفلسفته وماهيته التي صاغها النبي ﷺ في مجمل خطاباته، ومع بسط تلك التجربة النبوية في الكشف عن حقيقة نظام التشكيل الاسري يمكن ازالة الالتباسات المعاصرة الناتجة

من إضطراب في الفهم والخلط في حقيقة الرجل والمرأة كنوع اجتماعي احدهما مكملا للآخر، وصولا إلى بيان ما تؤديه تلك المفاهيم النبوية من آثار متنوعة في العالم المختلف الذي يتعرض إلى خلل في البناء الثقافي والقيمي في الحقبة المعاصرة .

لذلك توخى البحث قراءة نص العائلة في أقواله ﷺ لانّها فعلٌ تقريري مؤسس للنموذج الصحيح المطلق في مساحة الحياة، وبصورة انتظمت من تمهيد وثلاثة مباحث، جاء التمهيد لقراءة مفهوم العائلة، ثم المبحث الاول الموسوم بتأسيس العائلة المشروعة والمبحث الثاني المتضمن أنماط العلاقات في العائلة يليه المبحث الثالث وهو وظيفة العلاقات في العائلة وصولا الى هوامش البحث وخاتمته وقائمة بالمصادر والمراجع.

مدخل : العائلة قراءة في المفهوم:

تمثل العائلة النواة المركزية الأولى في تشكيل المجتمعات، فالمنطلق الاساس في حفظ وحدة النوع الاجتماعي يتشكلُ من خلال تكوينها، وتوزيع الادوار المختلفة بين أعضائها يتم من خلال وجودها، وإنْ كان هناك ثمَّة فارق بين المجتمعات في تلك الادوار وهيكلية الارتباط، فانّه يبقى المحور الرئيس في انتظام المجتمعات وتكاثرها هو ركيزة العائلة . والعائلة في اللغة من : ((عال عياله يعولهم عَوْلاً وعِيالَةً، أي قاتَهم وأنفَق عليهم. يقال: عُلْتُهُ شهراً، إذا كفيته معاشه)) [١]، أمَّا الأسرة فهي مفهوم مفتوح شامل لعشيرة الرجل وأهل بيته، إذ يطلق عليهم لفظ الأسرة وليس العائلة .قال ابن منظور : ((أسرة الرجل: عشيرته ورهطه الأدنون، لأنَّه يتقوَّى بهم))[٢]، ومحور الدلالة فيهما يشير إلى الافتقار والاستعانة. وفي الحقيقة ((من يتصفح تاريخ البشرية فضلا عن تعاليم الاديان يدرك أنَّ النظام العائلي وزيادة النسل وعدم اختلاط الانساب والابتعاد عن الخيانات الزوجية والتحلل والابتذال هي قضية نفسية وفطرية))[٣] .

وقد تنوع النظر الى مفهوم العائلة بين الدارسين، بتنوع الاتجاهات الاجتماعية والثقافية، فهناك من لايرى أنَّ الرابطة المشكلة للعائلة هي رابطة الدم أو ارتباط وحدة الجماعة بالتزامات محددة

١ الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، ج٥، ١٧٧.
٢ ابن منظور، لسان العرب، ج٤، ٢٠.
٣ الشيرازي، العائلة، ١٦.

لاعضائها، كافية لانْ يطلق على ذلك اسم العائلة، فوجود العائلة مرهون بمحددات اخلاقية واجتماعية وقانونية تجعل من العائلة نظاما اجتماعيا، وكلُّ فرد فيها له وظيفته وواجباته عن الطريق المشروع المسمى بالزواج كونه الوسيلة التي تكسب العائلة طابعها الشرعي والانساني[٤] ويتفرع عن مفهوم الرابطة الزوجية تأسيس لمفهوم العائلة يقوم على أساس الاقتران المشروع اجتماعيا ودينيا واخلاقيا وما ينتج عنه من التزامات تتعلق برعاية الاطفال وتربيتهم[٥]

وينشأ عن مفهوم الاقتران الزوجي مجموعة دوافع لتشكيل العائلة، يقول أحد الباحثين : ((وتتم في هذه الجماعة اشباع الحاجات الاقتصادية والاجتماعية واشباع الدوافع الجنسية وتقوم الجماعة بتهيئة المناخ الاجتماعي الذي يساعد في رعاية الاطفال وتنشئتهم))[٦] ومن ثم يمكن تبني مفهوم العائلة الشائع بانَّها : ((وحدةٌ اجتماعية تتصف بالأقامة المشتركة والتعاون الاقتصادي ومسؤولية الانجاب وهي تضمُّ كحد أدنى شخصين راشدين من الجنسين وطفلاً واحداً على الاقل منحدرًا من علاقتهما الزوجية كأب وأم)) [٧]، وإلى المعنى الوظيفي ذهب الشيخ القرشي في تعريفه للعائلة أو الاسرة قائلا : ((الأسرة هي اللبنة الاولى في قاعدة أي مجتمع من المجتمعات الانسانية، ويستحيل انْ يتكون أي مجتمع او يحتل له مركزًا تحت الشمس من دون الاسرة كما أنّ المجتمع انَّما يسمو ويتميز بما تحمله أفراد الاسرة من طابع ثقافي وحضاري، كما أنّه يُمنى بالتأخر والانحطاط أنْ أصيب أبناء الاسرة بالتخلف الفكري والعلمي))[٨].

وفي الحقيقة أن النظر في تأسيس العلاقات السليمة المشروعة وفق المنهج النبوي، لم يأت لاستعراض أو ابراز قصب السبق في هذا الموضوع، بل لبنيان أسس سليمة في اطار الشراكة الزوجية وتأسيس النموذج العائلي الصالح والفاعل في الحياة، فلا مبدأ تفاضلي بين الرجل والمرأة الاّ في أساس الدور المنوط بكل منهما، فأصل التكوين واحد والوظيفة متغيرة محكومة بالمتغيرات الاجتماعية والثقافية للشعوب .

٤ البدوي، المجتمع والمشكلات الاجتماعية، ١٨٥ – ١٨٦.
٥ الخولي، مدخل الى علم الاجتماع، ٢٠٢.
٦ البدوي، المشكلات الاجتماعية والتربوية، ١١٧.
٧ النوري،طبيعة المجتمع البشري، ١١١.
٨ القرشي، نظام الاسرة في الاسلام دراسة مقارنة، ١٩.

وقد برزت بعض المحاولات التي أرادت تشويه صورة التكوين الاجتماعي المعروف بالعائلة، نتيجة منح التمايز بين الطرفين وفتح مساحات من الحرية غير المشروعة لطرف دون آخر، الى الحد الذي يعترف بإلغاء الفوارق بين الذكر والانثى بوصفهما : ((عبارة عن نوع واحد هو النوع الانساني فالإنسان يولد انسانا وليس امرأة أو رجلا))[٩]

ومن ثم فأنَّ الشروع في هذا المنحنى الخطير المروَّج له من أقلام ومؤسسات وحكومات، كفيلٌ بالمواجهة والاحاطة وصناعة الوعي بالحقيقة الاصيلة في غاية خلق الانسان وتشكيل نواة العائلة بالشكل السليم، فالمسيرة البشرية لم تعرف في تاريخها الطويل صورا من تلك الإثارات والجرأة في تهديد بنية العائلة الا في الظرف الراهن الذي يتماشى مع الحريات المنفلتة في العالم الغربي المؤمن بأنَّ تشكيلات العائلة لاتقف عند حدود الزوجية، وهذا منزلق خطير يستدعي الحفر في الأصول المؤسسة لعلل تشييد نواة العائلة في بعدها الديني والاجتماعي والنفسي، وصولا إلى متبنيات قارة وصحيحة في التشكيل والتفاعل والانتاج .

ومن المسلمات أنَّ تلك الاصول المؤسسة لنمط العلاقات الزوجية الصحيحة موجودة في النص القرآني المؤسس لنظام من العلاقات المشروعة والوظائف المركزية لكل من طرف من أطراف بناء العائلة، وهو ما ترجمه النبي ﷺ في كثير من أحاديثه بمقاربة نافذة تدرك أبعاد تشييد نواة العائلة في أبعادها الدينية والاخلاقية والاجتماعية، وتفصح عن أفضلية وسلامة النظام النموذجي في تشكيل بنية العائلة مقارنة بالنموذج العالمي المنخرط بقوة في تفكيك آصرة تشكيل العائلة .

٩ الزيدي، الجندر حلول ام إشكالية، ٧.

المبحث الأول

تشكيل العائلة المشروعة

لعلَّ الصورة المركزية الكاشفة عن الهوية الاسلامية ثقافيًا ودينيًا وسلوكيًا هي الرابطة الزوجية القائمة على أُسس مشروطة في الاقتران والوظيفة، حتى بدت مغايرة لمرحلة سابقة ساد فيها مشروع الزواج على سمات خارجة عن الذوق والمقبولية والحماية الذاتية لهوية الفرد من التشتت والضياع. فقد : ((أبطل الاسلام أنكحة الجاهلية وحرمها ..كالاستبضاع .. والمضامدة.. والمخادنة..والبغاء..والضيزن أو وراثة النكاح ..والشغار.. والبدل او تبادل الزوجات ..والمسبيات او المخطوفات..والزنا.. واستبقى منها نكاح البعولة وهو النكاح الشرعي القائم على الخطبة والمهر والعقد بالشروط التي عينها الاسلام))[١٠] .

وبدا الفارق كبيرًا في النظر إلى مشروعية الزواج عند نزول الاسلام، فاقتضاء الفطرة المبني في تلك العلاقة الحميمية على المودة والرحمة، جعل من فلسفة الزواج كيانًا حاميًا للعواطف المشروعة والتكامل الاسري الصحيح . فمجمل الآيات الكريمة تشير الى قداسة تلك العلاقة، قال تعالى : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ (الروم : ٢١) وقوله تعالى : ﴿ **هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ**﴾ (البقرة: ١٨٧)..، يقول سيد قطب : ((التعبير القرآني اللطيف الرقيق يصوِّر هذه العلاقة تصويرًا موحيًا، وكأنَّما يلتقط الصورة من أعماق القلب وأغوار الحس ... فيدركون حكمة الخالق في خلق كلٍّ من الجنسين على نحو يجعله موافقا للآخر . ملبيًا لحاجته الفطرية : نفسية وعقلية وجسدية، بحيث يجد عنده الراحة والطمأنينة والاستقرار ؛ ويجدان في اجتماعهما السكن والاكتفاء، والمودة والرحمة، لأن تركيبهما النفسي والعصبي والعضوي ملحوظ فيه تلبية رغائب كل منهما في الآخر، وائتلافهما وامتزاجهما في النهاية لإنشاء حياة جديدة تتمثل في جيل جديد))[١١]، وفي ضوء تلك العلاقة القائمة على الألفة والمودة في العائلة تتحول الممارسة إلى صورة اجتماعية تشير إلى قيم منتجة ومثمرة في العلاقات بين الافراد وتتيح إمكانية الترابط والانسجام بشكل أكبر، يقول صاحب

١٠ الترمانيني، الزواج عند العرب في الجاهلية والاسلام دراسة مقارنة، ج٣٧، ١٧ .

١١ سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٢١، ٧٥.

الميزان : ((ونظير هذه المودة والرحمة مشهود في المجتمع الكبير المدني بين أفراد المجتمع، فالواحد منهم يأنس بغيره بالمودة ويرحم المساكين والعجزة والضعفاء الذين لا يستطيعون القيام بواجبات الحياة.))[١٢]

وقد أولى النبي ﷺ هذا الموضوع عنايةً خاصةً في مجمل الاحاديث المروية عنه صلوات الله وسلامه عليه، حتى قيل ما قام به النبي محمد ﷺ في ميدان الزواج والعلاقات العائلية إنَّه تنظيم عميق واسع للبناء الاجتماعي.. بشكل استطاع توليد نظام عائلي ظهر مرضيا ومغريا في مجتمع ينتقل من مرحلة الجماعية الى مرحلة الفردية "[١٣]، فقد قال ﷺ : ((تزوّجوا، فإنّي مكاثر بكم الأمم غداً في القيامة، حتّى أن السقط يجيء محبنطئاً على باب الجنة، فيقال له : أدخل الجنة، فيقول: لا، حتى يدخل أبواي الجنة)) .[١٤] .وقال أيضا: ((ما يمنع المؤمن أن يتخذ أهلًا ؟! لعلّ الله يرزقه نسمة تثقل الأرض بلا إله إلا الله)) .[١٥].وقال ﷺ : ((من أحب فطرتي فليستن بسنتي ومن سنتي النكاح))[١٦].. وعنه ﷺ ما بُنـــــــي بناءٌ في الإسلام أحبُّ الى الله عزّ وجل من التزويج)[١٧]، وقال ﷺ : (تَزوّجوا النساء فانهن يأتين بالمال)[١٨] وكذلك قوله ﷺ : ((من تزوج أحرز نصف دينه))[١٩]، وعنه ﷺ انَّه قال : (ما استفاد امرؤٌ مسلم فائدة بعد الإسلام أفضل من زوجة مسلمة تسرّه إذا نظر إليها، وتطيعه إذا أمرها، وتحفظه إذا غاب عنها في نفسها وماله[٢٠] وعنه ﷺ : ((إذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه، إلاّ تفعلوه تكن فتنة في الارض وفساد كبير))[٢١]. وعنه ﷺ : ((الركعتان يصليهما المتزوج أفضل من سبعين ركعة يصليها أعزب، أو أفضل من رجل

١٢ الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١٦،١٦٦.
١٣ مونتجومري، محمد في المدينة، ٤٤١.
١٤ الطبرسي، مكارم الاخلاق، ٢٥٥- ٢٥٦.
١٥ الطبرسي، ٢٥٥.
١٦ الطبرسي، ٢٥٥.
١٧ الطبرسي، ٢٥٥.
١٨ الطبرسي، ٢٥٥.
١٩ الطبرسي، ٢٥٥.
٢٠ الطبرسي، ٢٦٠.
٢١ الطبرسي، ٢٦٥.

أعزب يقوم ليله ويصوم نهاره))[٢٢].

ولعلَّ في تلك الاحاديث وغيرها تأسيسا لتنظيم الحياة البشرية وفق مشروع الارتباط الزوجي، من حيث الغاية والهدف والوجود الفعلي للإنسان على الارض. فالرغبة الملحة ذات العمق الروحي والنفسي في فكرة الزواج هي ممارسة فطرية مودعة في النفس الانسانية ينخرط في أدائها مجموعة من الممارسات التشريعية المؤطرة لحقيقة هذا الفعل القدسي. وفي الحقيقة أنَّ تعبير النبي ﷺ بتلك الآلية من الممارسات التحفيزية يمثل نموذجا لنظام جديد يعبرُ بالإنسان من منطقة الفوضى الى القدرة الواعية في استمرارية النوع الاجتماعي بتلك الصورة المتعددة الجزاءات من التكريم والتحفيز : ((فالأصل أنَّ التوازن في فقه الشريعة وعلاقة المرأة بالرجل الذي تضج به السيرة مسار معتدل يضمن انسيابية فطرية في قضاء مصالحهم المشتركة واتباع الآداب لدعم المجتمع قبل الوصول الى مرحلة العقوبة وهو ما يتفق مع طبيعة الفطرة البشرية التي فطر الله الناس عليها))[٢٣]، على النقيض مما نراه اليوم في بعض مجتمعات الحضارة الغربية، إذ تفتقر منظومة تكوين الاسرة الى مبررات الوجود والديمومة نتيجة الانقلاب على نظام الفطرة الانسانية واعتماد الفهم الثقافي القائم على الملذات الحسية في تشكيل البيئة العائلية، يقول المفكر عبد الوهاب المسيري: ((ويتسارع تآكل الاسرة الى أنْ تأخذ في الاختفاء تماما وتظهر اشكال بديلة عن الاسرة، اسرة من رجل واحد واطفال، امرأة واحدة واطفال، رجلان وأطفال، امراتان واطفال، رجلان وامراة واطفال وتظهر حركة التمركز حول الانثى التي تنظر للمرأة بوصفها في حالة صراع مع الرجل))[٢٤].

والخاصية الاساسية في إشاعة منحى العلاقة المشروعة في الزواج تبدأ من اتجاه الاختيار النموذجي المرتكز على تصورات أخلاقية وأجتماعية ودينية كما تعكسها احاديث النبي ﷺ، فقد قال : ((تزوجوا في الحجر الصالح، فإنّ العِرْقَ دسّاس))[٢٥] وقال ﷺ ((أنكِحوا الأكفّاء وانكحوا فيهم واختاروا لِنطَفكم))[٢٦]..ففاعلية النموذج الحقيقي في بنية تكوين العائلة ينطلق من تلك الاصول المؤسسة

٢٢ الطبرسي، مكارم الاخلاق، ٩٧.
٢٣ الحبيل، فكر السيرة قراءة ثقافية معاصرة، ٤٦.
٢٤ المسيري، دراسات معرفية في الحداثة الغربية، ١١٩.
٢٥ الطبرسي، مكارم الاخلاق، ٢٥٦.
٢٦ الطبرسي، ٢٦٤.

على معايير الصلاح في الانتساب، فالحجر الصالح صورة لتشكيل عائلي ذي حصيلة قيمية خاصة تعلن عن الاستقامة والآداب والاخلاق، وعلى النقيض من سيادة نمط يتوازى فيه النموذج غير المقبول عند الابتعاد من النوع الامثل في مسألة الاختيار. ويتخذ النهي شكلًا توجيهيًا في تفكيك بنية الاختيار القائمة على أساس الشكل دون مراعاة للنظم الدينية والاخلاقية والاجتماعية المعبرة عن حقيقة الوجود الفعلي للانسان على مدى بقائه وإرتقائه. قال ﷺ ((أيّها الناس إيّاكم وخضراءَ الدِّمن، قيل يا رسول الله وما خضراء الدِّمن، قال: المرأة الحسناء في منبت السّوء))[٢٧]، فالجمال الشكلي للمرأة في بنية النشوء العائلي المُشَوَّه المستلب للعقيدة والاخلاق، ليس قادرا على توليد الفرد الاجتماعي الواعي، أو تجسيد المثال المطلوب في بنية المجتمع.

ومن ثم فانَّ إستكناه تلك العلاقة بتلك الأحكام القيمية والاجتماعية بمنطق فهم خصائص الاختيار والتعامل والتعليل في الحياة الزوجية مبرر لأهمية مشروع الزواج في المنظور الاسلامي، فالاستئناس بالزوجة وإمتداد الانسان في الذرية وتوزيع الأدوار بين الجنسين ديمومة الحياة وتكاملها وفق السنن الطبيعية للتكاثر والاجتماع . وإلى هذا المبدأ ذهبت الباحثة الامريكية جان مارش بقولها: ((لقد أحببت هذا الجانب من الحياة الاسلامية حبًّا كثيرا لانَّه يمنح الزوج والزوجة والابناء مالا غنى لهم عنه من الحب والاخلاص والسلام الذي يُعمِّر حياتهم وليس ذلك فحسب بل بفضل هذا الاخلاص في العلاقات الزوجية بين المسلمين هم واثقون أنّ ابناءهم هم حقا من صلبهم غير دخلاء وهذا مفقود في المجتمعات الاخرى))[٢٨]*، وعن رسول الله ﷺ: (النكاح رقّ فإذا أنكح أحدكم وليدة فقد أرقّها، فلينظر أحدكم لمن يُرِقّ كريمته).[٢٩]، وتلك التوصية تستلزم بيان اهمية اختيار الزوج فطبيعة العلاقة الموصوفة بالرق من خلال فعل النكاح منتجةٌ لاستباحة مشروعة تتطلب الدقة والتأني والنظر فيمن تمنح له البنت أو الاخت كزوجة.

ويلحظ الرصيد القيمي في الاختيار بشكل فاعل كونه الاداة الرئيسة التي تتشكل وفقها صورة العائلة لذلك يرتكز معيار اختيار الزوجة على بنية صلاح المرأة وعفتها،قال رسول الله ﷺ :

٢٧ الطبرسي، مكارم الاخلاق، ٢٦٣.
٢٨ العشي، رجال ونساء اسلموا، ج٩، ٦٣-٦٤.
٢٩ الطبرسي، مكارم الاخلاق، ٢٦٥.
* نقلا عن المرأة والاسرة من منظور غربي، ٥١.

((تنكح المرأة على أربع خلال : على مالها، وعلى دينها، وعلى جمالها، وعلى حسبها ونسبها، فعليك بذات الدين))[٣٠]،وورد عنه ﷺ : ((من سعادة المرء الزوجة الصالحة))[٣١]فالمال والجمال والحسب والنسب لا يقع في منزلة الدين، وإن كانت الثقافة تولي اهتماما كبيرا بالجسد والمتعلقات المادية، يبقى الباعث الاساس الموكول بدور نجاح الحياة الزوجية هو الدين لانَّه ممارسة لعلامة خاصة قادرة على بث مشاعر من الالفة والانسجام والتعاون والطاعة في سلسلة التكامل الزوجي.

ولم تغب الآداب التوجيهية عن الرؤية النبوية في فعل ممارسة النكاح لما في ذلك من آثار جسدية ومعنوية تنعكس على المولود فيما بعد، فقد قال رسول الله ﷺ : ((يا علي، لاتجامع امرأتك من قيام، فإن ذلك من فعل الحمير، وإن قضى بينكما ولد كان بوّالاً في الفراش، كالحمير تبول في كل مكان))[٣٢]، وقال ﷺ ((من جامع امرأته وهي حائض فخرج الولد مجذوماً أو أبرص فلا يلومنَّ إلاّ نفسه))[٣٣]. فهذا الاقتضاء هو ضابط لمحددات تهذيبية ترى ان فعل النكاح هو متعة خاضعة لنسق من السلوك اللائق بالانسان دون مشابهة لفعل الممارسة الحيوانية، مع ضبط جانب سلامة الجنين وصحته حين يؤول الامر الى آثار وخيمة ناتجة من وقت الجماع المنهي عنه في حال حيض المرأة وعدم استعدادها لتلك الممارسة.

وفي تصوير نمط العلاقة المثلى عند ابتداء العلاقة الزوجية يستهل النبي ﷺ أمر تلك الشراكة بقيم من الآداب والوصايا المفضية الى طبيعة من العلاقات الحميمة دون تعزيز لسلطة ذكورية، بل تأسيس حالة من الاستئناس لمجال من المحبة والمودة والاستعاذة من مقتضيات الشرور ودواخل الامور،يقول الرسول ﷺ : ((يا علي، إذا أُدخلت العروس بيتك، فاخلع خفّها حين تجلس، واغسل رجليها، وصُبّ الماء من باب دارك إلى أقصى دارك، فإنك إذا فعلت ذلك أخرج الله من دارك سبعين ألف لون من الفقر، وأدخل فيها سبعين ألف من الغنى، وسبعين لوناً من البركة، وأنزل عليك سبعين رحمة ترفرف على رأس عروسك))[٣٤]

٣٠ الريشهري، ميزان الحكمة، ج٢، ١٨١.
٣١ الريشهري، ٢٦٠.
٣٢ الطبرسي، مكارم الأخلاق، ٢١٠.
٣٣ الطبرسي، ٢١٢.
٣٤ الطبرسي، ٢٧٠.

المبحث الثاني

انماط العلاقات في العائلة

تفترض الدراسات الحديثة أنَّ العلاقة السائدة في بنية العائلة تقوم على التبعية والهيمنة والخضوع، وأغلبها تتشكل بفعل الانظمة الاجتماعية وتأثيراتها على الواقع، مع التعذر عن إعطاء صورة النموذج الحقيقي لما تكون عليه رابطة أفراد العائلة من آصرة وقيم وإدراك .

يقول أحد الباحثين : ((تكمن أهمية العائلة الابوية لفهم البنى الابوية المستحدثة في علاقاتها الداخلية الاساسية وفي المقام الاول في علاقات السلطة والهيمنة والتبعية وهذه كلها تعكس بنية العلاقات الاجتماعية وتنعكس فيها))[٣٥]، ولعل تلك المسألة من أعقد القضايا الاشكالية في البحث الاجتماعي نتيجة التطورات المعرفية التي سادت في دراسة المنظور النفسي للفرد والعائلة، وإعطاء المنزلة العليا لسلطة الاب في سلم التطور التاريخي الذي يعكس مرحلة دينية وفكرية تفوَّق فيها على سلطة الام الروحية.

وبلا شك أنَّ بروز تحديد العلاقات العائلية قد رافق ظهور موجة الحداثة المنادية بالنهوض الاجتماعي ونبذ التخلف في مركزية سلطة الرجل على المرأة، باعتبار الوجود الانساني ذكرا كان أو انثى له وجوده الفاعل والمميز في مسرح الحياة بديناميكيات عقلية ونفسية متفاوتة لها قوتها وفاعليتها المؤثرة في الواقع، والرجل هو الاقدر على التأثير.

وقد أوقع هذا اللبس خلطا كبيرا في تنمية العلاقات العائلية وفق منظار التكامل الزوجي، فالمنطق القرآني لايميز في اصل الخلقة، قال تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ، واحِدَةٍ، وخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا ونِسَاءً واتَّقُوا الله الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ والْأَرْحَامَ إِنَّ الله كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**﴾ (النساء:١). بل في توزيع الادوار المؤدية الى التكامل الحياتي بين المكونات الاجتماعية والاسرة مثال على ذلك . فلابد أن يقوم كل انسان بمهمته أمَّا اذا انقلبت الموازين ورفض بعض الناس أداء ادوارهم في الحياة او حاولوا القيام بأدوار أخرى هم غير مكلفين بها لم يؤهلهم الله تعالى للقيام بها في هذه الحالة لابد أن يحدث الشقاء والمشاكل والتعاسة

٣٥ الشرابي، النظام الابوي واشكالية تخلف المجتمع، ٦٠.

والفوضى في الحياة))[٣٦] والمنطلق في فهم آليات العلاقات العائلية بناء على مقولات النبي ﷺ يرتكز على منظور التواصل يستوعب خصائص مقومات الافراد في الاسرة وما أنيط بدور كل طرف فيها . فالطبيعة المتنامية لانتاج علاقات متكاملة لنمط العائلة تتخذ زواية الرفق في التعامل الحميم مع المرأة، فعن النبي ﷺ قال :((اتقوا الله في الضعيفين؛ اليتيم والمرأة، فإنّ خياركم خياركم لأهله))[٣٧]، فأداة تحقيق المحبة والوداد تتمحور من منطق النظر بالاستعطاف الى المرأة، فالحقيقة إلى احكام الرضا الالهي والسعادة الدنيوية هي الاحسان الى الاهل وبلوغ الوعي يتمثل بأنَّ عمل الخير يكون للعائلة في اول الامر ومنتهاه .

وتبرز مركزية التقوى في التعاطي الاخلاقي مع العائلة في صيغة من التوجيه تكاد أن تكون ثقافة عامة في مجمل أحاديث النبي ﷺ، يقول ﷺ مخاطبا عليا : ((يا عليّ، أحسن خُلقك مع أهلك وجيرانك ومن تعاشر وتصاحبُ من الناس، تُكتب عند الله في الدّرجات العُلى))[٣٨]، ويقول ﷺ:(من اتّخذ زوجة فليكرمها)[٣٩]، ويقول ﷺ : ((خير الرجال من أُمّتي الذين لا يتطاولون على أهليهم، ويحنّون عليهم، ولا يظلمونهم)[٤٠].

فالترميم الاخلاقي يتخذ من الهوية الذاتية معبراً لتشييد قيم الاسرة الحقيقية حين يكون التحاور وجدانيا انسانيا قائما على الخلق الحسن والتكريم والانصاف وعدم الظلم، وبلا شك أنَّها أنساق تستحضر التحولات الكبرى التي مرَّ بها المجتمع قبل الاسلام فاستدعت هذا التغيير البنائي مفهوما وفعلا لصياغة هوية إسلامية جديدة تؤمن بأنَّ افضل الصيغ البشرية في قانون الاندماج العائلي هو الاحترام والتبجيل والتقدير. ((فالعائلة قيمة معنوية ومادية وهي حصانة ذاتية ونفسية وأي نقص في نظامها سينعكس مباشرة على سلوك كل فرد من افرادها))[٤١]

وفي رؤية نبوية أخرى يفصح النبي ﷺ عن امتداد علاقة الرجل بالمرأة في اطار التعاون الحسي

٣٦ الشعراوي، فقه المرأة المسلمة، ٨١.
٣٧ المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٦، ٢٦٨.
٣٨ الحراني، تحف العقول، ١٤.
٣٩ الطبرسي، مكارم الاخلاق، ٢٦٥.
٤٠ المجلسي، بحار الانوار، ج٢١، ٢١٧.
٤١ الغذامي، القبيلة والقبائلية هويات ما بعد الحداثة، ١٤٣.

المنتج لفائدة كبرى من النعيم المقيم في الذاكرة الاسرية، حين يقوم الرجل بنشاط ينخرط في خدمة عياله ولو كان قليلا، ليؤسس ﷺ نظاما من الممارسة الثقافية في بنية شعور الرجل،يدرك من خلالها طبيعة تعدد الجزاءات الممنوحة لهذا الفعل، ولزيادة الرغبة في تلك الاعمال التعبدية بقطع النظر عن كيفيتها وطرقها،قال رسول الله ﷺ مخاطبا الامام علي عليه السلام: ((اسمع مني وما أقول إلا من أمر ربي ما من رجل يعين امرأته في بيتها إلا كان له بكل شعرة على بدنه عبادة سنة، صيام نهارها وقيام ليلها وأعطاه الله من الثواب مثل ما أعطاه الصابرين داود النبي ويعقوب وعيسى عليهم السلام، يا علي من كان في خدمة العيال في البيت ولم يأنف كتب الله اسمه في ديوان الشهداء، وكتب له بكل يوم وليلة ثواب ألف شهيد، وكتب له بكل قدم ثواب حجة وعمرة، وأعطاه الله بكل عرق في جسده مدينة في الجنة، يا علي ساعة في خدمة البيت خير من عبادة ألف سنة وألف حجة، وألف عمرة، وخير من عتق ألف رقبة، وألف غزوة، و ألف مريض عاده، وألف جمعة، وألف جنازة، وألف جايع يشبعهم، وألف عار يكسوهم وألف فرس يوجهه في سبيل الله، وخير له من ألف دينار يتصدق بها على المساكين، وخير له من أن يقرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، ومن ألف أسير أسر فأعتقهم، وخير له من ألف بدنة يعطي للمساكين، ولا يخرج من الدنيا حتى يرى مكانه من الجنة. يا علي من لم يأنف من خدمة العيال فهو كفارة للكبايـر و يطفي غضب الرب ومهور الحور العين وتزيد في الحسنات والدرجات، يا علي لا يخدم العيال إلا صديق أو شهيد أو رجل يريد الله به خير الدنيا والآخرة[٤٢].

وفي سياق الرفض للعلاقات الطاردة في دائرة العائلة، يأتي النهي عن بعض الاساليب والسلوكيات ذات الغطاء غير الانساني، كونها حاملة لصفات مغايرة عن نظام القيم الاسلامية العالية، منها أسلوب الضرب غير المبرر وترك النفقة أو الإعالة، قال النبي : ﷺ :((إنّي لأتعجّب ممّن يضرب امرأته وهو بالضرب أولى منها))[٤٣] "، ففي هذا السلوك بعدٌ عن القيم العليا واحتكار لسلطة ذكورية لا تؤمن بإنسانية الانسان ولا ترى لبنية العائلة اعتبارا مؤثرا في الوجود .فهي ثقافة تجنح الى نزعة استقصائية كانت سائدة رائجة في ادبيات الحياة والواقع المعاش. والمنظور الحاكم في

٤٢ المجلسي، بحار الانوار، ج١٠١، ١٣٢.
٤٣ المجلسي، ج١٠٠، ٢٤٩.

تشكيل هذا المعطى الثقافي هو ثنائية الصراع بين سلطتي المرأة والرجل،التي خلقها المناخ الثقافي على نحو من الالتباس والتداخل، بصورة تشي بتعزيز قناعة الفوقية والدونية على المدى الطويل لكلٍّ من الطرفين، تقول الدكتورة السعداوي : هناك كثير من الرجال لازالوا يعتقدون ان عقل المرأة يشوه انوثتها وأنّ ذكاءها يفسد طبيعتها لذلك فسيادة الرجل وخضوع المرأة انّما هي أشياء طبيعية نتيجة اثر الاضطهاد الاجتماعي الطويل.[٤٤].

وتحضر قيمة العدالة وجزاؤها بوصفها نسقًا ثابتًا في المدونة النبوية، حين يكون السلوك غير مشروع في سلّم النظام الحياتي، ويصبح التعالي سبيلا الى إحداث خلل في بنية النظام العائلي بغياب التساوي التام في نمط العلاقات الزوجية . قال ﷺ :((ومن كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما في القسم من نفسه وماله، جاء يوم القيامة مغلولاً مائلاً شقّه حتى يدخل النار))[٤٥]. فتلك الصورة هي علامة ثقافية لفهم حقيقة العلاقة بالمرأة الثانية وما فيها من جزاء يبين طبيعة العقاب المصور الكاشف عن حقيقة هذا الفعل.

وفي الاعتناء بالخصائص النفسية والاقتصادية للرجل من قبل المرأة في دائرة العلاقة العائلية تتواتر جملة أحاديث عن النبي ﷺ تشير الى سمة خطيرة كاشفة عن السخط والغضب في الدارين، يقول ﷺ : ((((ألا وأيّما امرأة لم ترفق بزوجها، وحملته على ما لا يقدر عليه وما لا يطيق، لم يقبل منها حسنة، وتلقى الله وهو عليها غضبان))[٤٦].ويقول ﷺ :أيّما امرأة آذت زوجها بلسانها لم يقبل منها صرفاً ولا عدلاً ولا حسنة من عملها حتى ترضيه)[٤٧]. فهذا التماثل في صورة الجزاء ناشيءٌ في عمقه من حقيقة جوهرية أنَّ طاعة الرجل في بنيتها الوظيفية تمثل وظيفة ضرورية لحفاظ كيان الاسرة، فالبقاء الطبيعي للعائلة مرهون في أساسه على القيم الانسانية والمعنوية الخالدة، ومنها حفظ سيادة الدور الحقيقي لرب العائلة.

وللبنت كيانها الاجتماعي والعاطفي في منظومة تشكيل العائلة، على الرغم من المأثور الذي اعتبر المرأة أدنى منزلة من الرجل تفكيرًا وانتاجًا وسلوكًا، فالنبي ﷺ يؤسس في رابطة العلاقة الاسرية

٤٤ السعداوي، الأنثى هي الأصل، ٣٣.
٤٥ العامري، وسائل الشيعة، ج٢١، ٣٤٢.
٤٦ الطبرسي، مكارم الاخلاق، ٢٧٨.
٤٧ الطبرسي، ٢١٢.

أهمية النوع الاجتماعي المتمثل بالمرأة على أساس من الادامة والتحفيز والتربية، يقول ﷺ:((خير أولادكم البنات))[٤٨]. وقال: ﷺ :((إنّ الله تبارك وتعالى على الإناث أرأف منه على الذّكور، وما من رجل يدخل فرحة على امرأة بينه وبينها حرمة إلا فرّحه الله تعالى يوم القيامة))[٤٩]وقال: ﷺ:((من كانت له ابنة فأدّبها وأحسن أدبها وعلّمها فأحسن تعليمها، فأوسع عليها من نعم الله التي أسبغ عليه؛ كانت له منعة وستراً من النار))[٥٠]. ويقول ﷺ((ساووا بين أولادكم في العطيّة، فلو كنت مفضّلاً أحداً لفضّلت النّساء))[٥١]،وفي الحقيقة أنَّ هذا الاقرار بالأفضلية والرأفة الالهية والمنعة والستر لم يبنَ على الفروق البايلوجية بين الجنسين أو التربية أو الادوار الاجتماعية بل إلى قيمة المخلوق الانساني اذا كان أنثى نظرا إلى الاسقاطات الاجتماعية غير المتوازنة في حفظ هوية الانسان وكرامته إنْ كان من الجنس الآخر. وغير خاف أنَّ تلك النظرة النبوية الثاقبة هي أُفق مفتوح لترسيخ قيمة المرأة في الفكر الاسلامي، بعيدًا عن الذهنية التقليدية والاسقاطات الذاتية في تفضيل جنس على آخر.

ولايرتبط نسق العلاقات العائلية على بيان أهمية دور الانثى وتكريمها والجزاء المترتب عليها، بل يمتد شكل العلاقة الى تعيين ثقافة العطاء والتكريم اتجاه الاولاد ذكرانا كانوا أم اناثا، فالبنى الذهنية الحاكمة في التربية وفق منظور النبي ﷺ تقتضي مبدأ التكريم ومنها جاء قوله : ﷺ :((أكرموا أولادكم، وأحسنوا آدابهم؛ يُغفر لكم))[٥٢]. وقوله : ﷺ : ((أكثروا من قبلة أولادكم؛ فإنّ لكم بكلّ قبلة درجة في الجنّة؛ مسيرة خمسمائة عام))[٥٣]، فالتصور الناتج من خلال التكريم والاحسان والمحبة والرحمة والتقبيل هي علامات ثقافية فاعلة في منطق التربية تؤسس لوعي اخلاقي محكم من خلال ذلك التفاعل الديني والاجتماعي والاخلاقي المؤطر بتلك التوصيات .والى هذا تنبه بعض الدارسين الغربيين بقوله : ((كانت الاسرة الاسلامية ترعى دائما الطفل

٤٨ الطبرسي، مكارم الاخلاق، ٢٨٣.
٤٩ الطبرسي، ٢٨٣.
٥٠ الريشهري، ميزان الحكمة، ج٤، ٣٦٧.
٥١ الطبرسي، مكارم الاخلاق، ٢٨٤.
٥٢ الطبرسي، ٢٨٣.
٥٣ الطبرسي، ٢٨٥.

وصحته وتربيته رعاية كبيرة وترضع الام هذا الطفل زمنا طويلا واحيانا لمدة اكثر من سنتين وتقوم بتنشأته بحنان وتغمره بحبها وباحتياطات متصلة((٥٤.

وعندما تكون العلاقة قائمة على العدالة في التعامل بين أفراد العائلة فانها تصبح آصرة للتماسك في فضاء التكامل الذاتي والمجتمعي، دون أن يسيطر شعور من الاغتراب على أحد افراد الاسرة بالاهتمام او اللامبالاة، يقول : ﷺ :((اعدلوا بين أولادكم كما تحبّون أن يعدلوا بينكم في البرّ واللطف))٥٥: ويقول ﷺ : ((إنّ لهم عليك من الحقّ أن تعدل بينهم، كما أن لك عليهم من الحقّ أن يبرّوك))٥٦، فنمط العلاقة المستقرة مبني على إذاعة تلك الثقافة من التوازن في اعطاء حقوق أفراد الاسرة بشكل مناسب.

والتركيز على منظور التربية في تشييد العلاقة مع الاولاد يفتح بابًا لطاعة الله وتكون العلاقة المتبادلة عبادة لله شأنها شأن الافعال العبادية الاخرى، يقول ﷺ: ((نظرة الوالد الى ولده حبا له عبادة))٥٧، يقول أحد الباحثين : ((لقد أثبتت البحوث النفسية أن من أهم أسباب القلق النفسي يرجع إلى انعدام الدفء العاطفي في الأسرة، وشعور الطفل بأنه منبوذ محروم من الحب والعطف والحنان، وأنه مخلوق ضعيف يعيش وسط عالم عدواني))٥٨فالاطار الخالق لافق المحبة يتضاعف بتلك العلاقة الحميمة بين الآباء والابناء، لانه امتزاج تشاركي يبعد كل المسافات الطارئة في تلك الآصرة من العلاقات،ويذيب هاجس القلق والخوف في النسيج الداخلي للعائلة بما فيهم الاطفال في المنظور البعيد .

وعن النبي الاَكرم ﷺ : ((الولد سيّد سبع سنين، وعبد سبع سنين، ووزير سبع سنين، فإن رضيت خلائقه لاحدى وعشرين سنة، وإلاّ ضُرب على جنبيه، فقد أعذرت إلى الله))٥٩، اذ ينطلق هذا الفهم من سياسة التعامل مع الاولاد وتربيتهم في صياغة تأديبية ذات اطوار مناسبة للعمر

٥٤ جاك، الحضارة العربية، ٥٣.
٥٥ الطبرسي، مكارم الاخلاق، ٢٨٤.
٥٦ الطبرسي، ٢٨٧ .
٥٧ المجلسي، بحار الانوار، ج٧١، ٨٠.
٥٨ القرشي، نظام الاسرة في الاسلام دراسة مقارنة، ١٣٩.
٥٩ الطبرسي، مكارم الاخلاق، ٢٨٧.

وما يناسبه من احكام لا تكتفي بالإصلاح بل تصل الى اجراءات كامنة موغلة في تعديل الذات الى درجة الضرب إرضاءً لله سبحانه وتعالى، بمنهج تفاوتت فيها النظرة التربوية من حيث النضج والرشاد للابن،سيادة وعبدا ووزيرا، بمنطق كاشف عن بنيان التعامل مع الابناء في تلك المراحل العمرية المختلفة من منظار الخطأ والصواب .

واذا كانت اللغة تعمل على صياغة المعرفة، فإنَّ نظام الخطاب اللغوي العائلي له نمطهُ المؤثر في تشكيل مؤسسة مترابطة متماسكة في التنشئة الاجتماعية والتفاعل العاطفي أيضا، فالمحتوى العاطفي للغة قادر على إحداث تواصل وانقسام في الآن نفسه، لما في اللغة من حمولات تعبيرية تُغيِّر أو تُبدِّل المشاعر بوصفها وسيطا رمزيا لها تأثيراتها على البنى الفكرية للإنسان، ولعلَّ قول رسول الله ﷺ : قول الرجل للمرأة: "إنَّي أحبك لا يذهب من قلبها أبدا))[٦٠]، يمثل قاعدة جاهزة لنمط العلاقات الزوجية لأنَّه تعبير عن نوع خاص من الخطاب المفعم بالمودة والحب لاينفصل عن إستيعاب المشاعر لظلاله . يقول أحد العلماء : ((قول جميل من المرأة يحببها للرجل وقول جميل وملذ يطمئن المرأة، والمرأة تطلب أنْ يكون الرجل معجبا بها فلابدَّ من كلمات تطمئنها من هذا الجانب وتجعل نظرها كلّه مشدودا الى قلب الزوج))[٦١]، لذلك أنَّ المعجم اللغوي لأمةٍ ما هو في نفس الوقت صورة لما تعرفه الأمة في حياتها اليومية وفي كيانها الاقتصادي والسياسي وسلوكها الديني والاخلاقي وتقدمها العلمي والفني[٦٢]، وفي حقل معجم العائلة تتشابك العلاقات بسلسلة من الموصوفات التي تحيل الى المرغوب والممتنع والمكافيء والمشْكِل في نمط من المألوف الاجتماعي المقبول دينيا واخلاقيا، بشكل لايفترض متخيلا بعيدا عن السائد بل صورة حقيقية للتكوين الاسري ترابطا وانفصالا، من ذلك ماورد في اقواله ﷺ من الفاظ تمثل ركائز رئيسة لسيادة نواة العائلة كـ :(ذات الدين، المرأة المؤاتية، البكر، الجادة، اللطيفة، الرحيمة، المجون لزوجها، الحصان لغيره، العقيم، المتبرجة، الاسيرة، الضعيفة، المطيعة، الواهة، الواصلة، الموصولة، التأديب، العدل، التعليم، الاحسان، العطف، الانفاق، البر، الحياء، الخشوع، الولد، الصبي، البنت، الانثى،

٦٠ الكليني، اصول الكافي، ج٥، ٥٦٩.
٦١ قاسم، الزواج والاسرة، ٤٥.
٦٢ ظاظا، اللسان والانسان، ٩٨.

الحدث، الاباء، الغلام، الكبير، الصغير، الوعد، الانجاز، العقوق، الضرب، البكاء، الثواب، النكاح، الطلاق، التقبيل، الحسنة، المسح، الرأس، ريحانة، الصالح، السعادة، النطفة، الخال، الضجيع، الزواج، الحمقاء، الضياع، الحامل، الغشيان، الرحمة، التقوى، المؤنسة، المباركة وغيرها)، تفيد تعييناً دلاليا كاشفا عن معنى فاعلية تلك الالفاظ في سياقاتها دون ان تحبس في المعنى التاريخي فحسب بل هي تمثلات لولادة نسيج اجتماعي وديني واخلاقي يدمج الفرد في زمرة من العلاقات الاسرية تشكل المصدر الاساس لوجود اجتماعي مثمر، في ظلالها لا يتحول الفرد في بنية العائلة الى شخصية مستقلة او توازن قلق حين يوصف بالذم رجلا كان ام امراة ام احد افراد العائلة ؟، بل هو توصيف يبتغي تجاوز الاعتكاف عن الحاجات النفسية والجسدية، او التخبط في دقة الاختيار، او الاستغراق في الوهم تحت مزاعم مكذوبة الى فضاء مرتبط بوظيفة وغاية تجعل من العائلة ذات قيمة مقدسة بلا موارية .

ومن ثم فان آلية توزيع تلك الالفاظ في حقول (المرأة والرجل، والابناء) بما يمنح تكوين العائلة،يمثل وسائط لأطر تنتمي لثقافة عالية تنفتح على الزمن دون منازعة على صحتها بكونها بنى صالحة مفتوحة الافق لمن اراد بناء مناخ صالح فيما يسمى بالاسرة، ولانها مشهد يستمد تصنيفه من شبكة معرفية سماوية لها سلطتها في الاقناع والتاثير وبنسق يقود الى خلق وعي منظم في تلك الرابطة المقدسة.

وتندرج في بنية العلاقات الاسرية حاكمية السلوك في التعامل مع المرأة لاستتباب السكون العاطفي في مستقر الحياة العائلية فهي أشبه بالاسير الذي يطلب الرفق والعطف في التواصل، حيث يقول ﷺ :(أَلا واستوصوا بالنساء خيراً، فإنّما هُنّ عَوان عندكم، ليس تملكون منهنّ شيئاً غير ذلك إلاّ أنْ يأتينَ بفاحشةٍ مبيِّنة، فإنْ فَعَلنَ فاهجروهنّ في المَضاجع واضربوهنّ ضَرباً غير مبرّح)[٦٣]، اذ تبدو العلاقة في هذا المنظور النبوي قائمة على مفهوم المحبة واللطف دون أنْ يحقق طرف ما سيادته على الآخر، الاَّ عند سلوك الفاحشة تصبح المرأة محمولا لفعل الهجر والضرب غير المبرح تأديبا وتهذيبا لما بدر من تمرد وخروج عن المألوف في الطاعة .

وتتمثل القمة في العلاقة حين يأتي الامر بوجوب تأدية المطلوب في المطعم والمأكل والملبس

٦٣ السيوطي، الدرّ المنثور، ج٢، ٥٢٣.

والاسلوب كشرط لنجاح الحياة واستمرار العلاقة الزوجية في هذا النسق من التربية، قال ﷺ في جواب على سؤال خولة بنت الأسود حول حق المرأة فقال : ((حقك عليه أن يطعمك مما يأكل ويكسوك مما يلبس ولا يلطم ولا يصيح في وجهك))[٦٤].حيث تتحول مشاعر الحفاظ على الحياة الزوجية بهذا الاهتمام الذي يتجاوز الاحتياجات المادية الى رأس المال المعنوي المتمثل بالاحترام وحفظ ماء الوجه بعيدا عن الضرب والصراخ المذمومين.

أمَّا الخيار المتصل ببروز ثقافة تحدث أثرا في نسيج العلاقة الزوجية، وتحقق اختلافًا في السلوك ووقوعًا في المحذور من العصيان والمنعة، فأنَّ السياق التحذيري هو الفيصل في عدم الاقتران بمثل هذا النموذج، لما فيه من فداحة تعود على الأسرة بالتفكك والانحراف، قال ﷺ : ((من شر نسائكم الذليلة في أهلها، العزيزة مع بعلها، العقيم الحقود، التي لا تتورع عن قبيح، المتبرجة إذا غاب عنها زوجها، الحصان معه إذا حضر، التي لا تسمع قوله، ولا تطيع أمره، فإذا خلا بها تمنعت تمنع الصعبة عند ركوبها ولا تقبل له عذرا ولا تغفر له ذنبا))[٦٥]، ويلمس بهذا تنشيط للذاكرة الجمعية للرجل في الابتعاد عن النموذج الموصوف بتلك الصفات المؤثر على بنية النظام المجتمعي بشكل عام .

وحين يبرز منطق المنِّ في نمط تبادلي للأدوار وتكون المرأة صاحبة الايقاع الاقوى في التهكم و التعيير، بشكل يهمش فيه دور الرجل وتنعكس فيه كل مقومات السلوك المرفوض، يكون الجزاء المتوقع هو انهيار اسباب العلاقات الزوجية والاحباط الأخروي حتى يتم التراجع والاعتذار، قال ﷺ : ((لو أن جميع ما في الأرض من ذهب وفضة حملته المرأة إلى بيت زوجها ثم ضربت على رأس زوجها يوما من الأيام، تقول : من أنت ؟ انما المال مالي، حبط عملها ولو كانت من أعبد الناس، إلا أن تتوب وترجع وتعتذر إلى زوجها))[٦٦]، وبلا شك ان تلك الحركة من الزوجة تجاه الزوج بهذا المنحى من التعارض والقطيعة، له آثاره في انعدام آصرة التعاون في العائلة فيغدو الامتياز ماديا والتعظيم لسلطة المال دون اعتبار لحقيقة الشراكة الزوجية الروحية والايمانية . لذلك

٦٤ الطبرسي، مكارم الأخلاق، ٢١٨.
٦٥ الطبرسي، ٢٠٢.
٦٦ الطبرسي، ٢٠٢.

جاء أمر العدول عن هذا التوجه طريقا لتهذيب نمط العلاقة في صورتها الحقيقية.

ويندرج في باب العلاقة الزوجية فعل الطلاق وما فيه من صورة تفقد زمام ترابط العائلة، الفعل الذي يشيع في المجتمعات الغربية بشكل كبير دون قيود مانعة لحدوثه، يقول الباحث المجري محمد اسد : ((بأنَّ الزواج في الاسلام لما كان عقدا مدنيا فحسب فأنَّ في مكنة الشريكين في الزواج أنْ يلجأ دائما الى الطلاق خصوصا وأنَّ الوصمة التي تلصق بالطلاق سواء بشدة أقل أو اكثر في المجتمعات الاخرى معدومة في المجتمع الاسلامي))[٦٧].

قال رسول الله ﷺ : ((أوصاني جبرئيل عليه السلام بالمرأة حتى ظننت أنَّه لا ينبغي طلاقها إلا من فاحشة مبينة))[٦٨]، وهذا تعميق الاحساس بكراهة ذلك الفعل الا على وفق وقائع مرهونة بفاحشة مبينة، وبلا شك أنَّ التحذير من هذا المنزلق مبني على فلسفة ذات اعتبارات بعيدة أهمها ما يصاحب ذلك السلوك من أزمات نفسية على الطرفين لاسيما الزوجة وتداعيات إسقاطاته على الابناء حيث الفجوة في التربية والنشأة نتيجة غياب أحد طرفي العائلة.

٦٧ ليوبولد، الطريق الى مكة، ٣٠٠-٣٠١.

٦٨ الطبرسي، مكارم الاخلاق، ٢٨٠.

المبحث الثالث

وظائف العائلة المركزية

في الحقيقة أنَّ العائلة لها وظائف مركزية مستمرة رغم التحولات الاجتماعية الطارئة على المجتمعات، وإنْ تنوع النسيج التكويني للأسرة فالميل التنظيمي هاجس ثابت في الذهنية المكونة للعائلة غريزيا وانسانيا . يقول أحد الباحثين انَّ الاسرة تؤدي ستة وظائف أساسية وهي : ((الانجاب والرعاية والرقابة والتنشئة الاجتماعية وتنظيم السلوك الجنسي والعاطفة والتوأمة وتأمين الموقع الاجتماعي))[٦٩]، وهناك وظائف أخرى للعائلة أهمها : التعلم والتربية البدنية وإيجاد الأب الشرعي والرقابة الاجتماعية وتأمين الحاجات الاقتصادية ونقل الاشياء المادية وتمضية أوقات الفراغ والنمو وتثبيت الشخصية واستمرار الفوارق الطبقية واستمرار التعارضات الاجتماعية وإيجاد التحولات الاجتماعية .[٧٠].

ومهمة الاسرة الاساسية ووظيفتها الكبرى بموازاة حشد من الوظائف الاخرى هي المحافظة على استمرار النوع وإرفاد الجماعات بالطاقات البشرية المتجددة التي تعينها ليس فقط على التواصل والديمومة وانَّما على النمو والتمكن في ميادين القوة والتحضر[٧١].

ولعلَّ الفلسفات الجديدة والافكار التي نتجت من التبدلات القيمية شكلت العامل الاساس في التبدلات الثقافية التي حصلت في العالم الغربي .. فسادت بعض القيم أمثال الاستقلال وعدم التبعية والنمو والابداع وبشكل عام اكَّدت هذا الفلسفات على مسألة الوعي الفردي بالذات [٧٢]، وإعطاء الصفة الفردية للمرأة نزعَ عنها صفة العضوية في الأسرة فاصبحت عنصرا قائما بذاته في المجتمع[٧٣]. وبلا شك أنَّ هذه التحولات ساعدت في تبدل وظيفة العائلة من خلال مناخات يغلب فيها الطابع الذاتي على حساب الطبيعة المشتركة بين الرجل والمرأة .

وعند استنطاق الخطاب النبوي تلمح منه وظائف متنوعة لها تفاعلاتها الدينية والاجتماعية

٦٩ النجفي، الاسلام والاسرة، ٨٢.

٧٠ النجفي، ٨٢.

٧١ عمر، المراة والاسرة المسلمة من منظور غربي، ٥٩.

٧٢ النجفي، الاسلام والاسرة، ١٤٣.

٧٣ النجفي، ١٤٤.

والاخلاقية والفكرية دون ان تخرج عن نسق التوجيه والتربية في كل ابعادها العميقة، من ذلك قوله ﷺ :((أدّبوا أولادكم على ثلاث خصال: حبّ نبيّكم، وحبّ أهل بيته، وقراءة القرآن، فإنَّ حملة القرآن في ظلّ الله يوم لا ظلَّ إلاَّ ظلّه مع أنبيائه وأصفيائه))[٧٤]، فإنّ القراءة الفاحصة لهذا الخطاب ترتكز على تأسيس الوظيفة العقدية وتثبيتها في نفوس الابناء بوصفها الدليل العملي لمسيرة الانسان في الحياة والعيش بطمأنينة وتوفيق، فنقطة الارتكاز في وظيفة التأديب هي حب النبي ﷺ واهل بيته عليهم السلام وقراءة القرآن، كونها مهيمنات منسجمة مع الذهنية الاسلامية غير قابلة للتحول أو التغير في ظل الملابسات العابرة، ومن ثم فأنَّ لها القدرة على تصدر جميع الوظائف الاخرى للعائلة لما تحمله من دلالات تأسيسية تستوعب كل المعاني الكلية وتسمح ببناء مفاهيم أخرى تتراص في متنها المواعظ والعبر والقيم الاصيلة.

وفي اطار الانضباط التنظيمي يأتي سياق الطاعة الزوجية كافراز واقعي لحياة آمنة مستقرة يعبر عن النموذج الحقيقي لنمط العلاقة المتبادلة بين الزوجين، يقول النبي : ﷺ : ((جهاد المرأة حسن التبعل لزوجها))[٧٥]، وحسن التبعل هو وظيفة سلوكية جامعة تستلزم منظومة صفات اساسية مصاحبة للكيان العائلي الامثل المستقر، حين يتم استدعاء الشروط الاصيلة عند المرأة في كيفية الطاعة الزوجية . ومثله قوله : ﷺ : ((ألا كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على النّاس راعٍ وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم))[٧٦]

وتأتي صفة الطاعة كفعل وظيفي منوط بالمرأة يتأسس عليها فعل الانوثة في ضوء المنظومة الثقافية، فاقترن هذا الفعل اي الطاعة الزوجية لاهميته بطاعة الله سبحانه وتعالى، وترتب عليه الثواب والعقاب امتثالا وتركا،قال ﷺ: أيما امرأة آذت زوجها بلسانها لم يقبل الله منها صرفا ولا عدلا ولا حسنة من عملها حتى ترضيه وإن صامت نهارها وقامت ليلها وأعتقت الرقاب وحملت على جياد الخيل في سبيل الله وكانت أول من يرد النار، وكذلك الرجل إذا كان لها ظالما[٧٧]. وقال

٧٤ المجلسي، بحار الأنوار، ج١٦، ٢١٠.
٧٥ الحراني، تحف العقول، ٣٢٢.
٧٦ الريشهري، ميزان الحكمة،ج٢، ١٢١.
٧٧ الطبرسي، مكارم الاخلاق، ٢٧٧.

رسول الله ﷺ : ((أيّما امرأة خرجت من بيتها بغير إذن زوجها فلا نفقة لها حتى ترجع))[٧٨].
وفي ذلك الترهيب تصورات مركزية لحفظ نظام العائلة دون ان يكون ذلك التوجيه إعلاء لسلطة الرجل ودونية المرأة بل هو نسق لإدامة العلاقة الزوجية وفق ضوابط تشريعية واخلاقية واجتماعية تحفظ للاسرة كيانها وسترها من تغييب الشخصية المعنوية للرجل والعوارض الطارئة.

وفي سيرورة تتخطى النمط العاطفي الى أُفق من الحماية الاجتماعية والذاتية والاقتصادية، يعرض النبي ﷺ صورة أخرى لوظيفة الرجل في شكل يرسم الدور الحقيقي الحميم لديمومة الأمن الاسري وحفظ نواته، يقول ﷺ: (الكادّ على عياله كالمجاهد في سبيل الله)[٧٩]. حيث تكون السلطة منوطة بالرجل في حفظ التوازن الوظيفي القائم على توزيع الادوار بين الطرفين .اذ : ((يكتسب الرجل قيمته من خلال خروجه للعمل والكد بالساعد أو بالفكر ومواجهة المصاعب والمخاطر فيعرف من خلال ادواره فهو العائل والمتكسب والصانع وغير ذلك)) [٨٠] .فالسمات الاساسية الفاعلة في تأطير الوظيفة العائلية للرجل او المرأة هو امتداح العمل وخلق الاحساس الضروري بفاعليته في بناء الاسرة المثالية، وإنْ كانت : ((المرأة في الاسلام لها دور أهم واكبر من مجرد الوظيفة وهو الانجاب وتربية الابناء ومع ذلك فقد اعطى الاسلام المرأة الحق في العمل اذا رغبت هي في ذلك واذا اقتضت ظروفها ذلك)) [٨١]، يقول ﷺ : ((المغزل في يد المرأة الصالحة كالرمح في يد الغازي المريد وجه الله))[٨٢]. والمغزل رمزيةٌ تختزن الوظيفة الممنوحة للمرأة في عصرها، لتشكيل هوية فعَّالة تحمل آصرة التعاون بين افراد الاسرة في معترك الحياة. ((إذ يعتبر الاسلام أنَّ الخدمات المتبادلة بين المرأة والرجل في الجانب المعيشي من وظائف العائلة المفروض وجودها))[٨٣]

ويتكثف بعد الرعاية والرقابة في منظور الوظيفة العائلية لتحقيق جوهر فلسفة التربية برعاية الحقوق والارتقاء الى بناء اجتماعي واخلاقي متميز في الوجود الاجتماعي، قال ﷺ : ((مِن حَقِّ

٧٨ الطبرسي، مكارم الأخلاق، ٢٧٧.
٧٩ العامري، وسائل الشيعة، ج١٧، ٦٧.
٨٠ قرامي، الاختلاف في الثقافة العربية الإسلامية، ٥٨٨.
٨١ العشي، رجال ونساء اسلموا، ج٨، ٢٨.
٨٢ الطبرسي، مكارم الأخلاق، ٢٣٨.
٨٣ النجفي، الاسلام والاسرة، ١٣٨.

الوَلَدِ على والِدِهِ ثَلاثَةٌ : يُحَسِّنُ اسمَهُ، ويُعَلِّمُهُ الكِتابَةَ، ويُزَوِّجُهُ إذا بَلَغَ))[٨٤]، فقَيم السلوك المتمثلة في حسن اختيار الاسماء وتعليم الكتابة والتزويج عند البلوغ هي غايات اخلاقية ومعرفية واجتماعية حاملة لأبعاد دلالية تتجاوز السمات الفردية إلى علامات ثقافية مانحة لهوية وعابرة لأسس المفاضلة بين البشر كونها نموذجا عاما صالحا لنظام انساني قوامه التعارف بين البشر في منطق التواصل الانساني. يقول أحد الباحثين : ((ومن المأثور أنَّ العرب كانوا يتفاءلون بالاسم الحسن، ويتطيرون من ضده وكانوا يقولون إنَّ من حق الولد على والده أنْ يختار له أُمّا كريمة ويسميه اسما حسنا ويعلمه القراءة والكتابة وإنَّما تطيَّرت العرب من الغراب للغربة إذ كان اسمًا مشتقا منها))[٨٥]، وفي الاطار ذاته تبدو وظيفة العناية والرقابة من الاولاد إزاء الوالدين في حالة من التفاني والعلاقة العاطفية الحميمية الممتلئة على نحو من المفاضلة والتركيز أمام الام مقارنة بالأب، تثبيتا لمنزلة الامومة المالكة لنسق القرب العاطفي الفاعل مقارنة بدور الابوة الحاملة للرعاية الاجتماعية الابرز مقارنة بالرعاية العاطفية .فعن أبي عبد الله ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله من أبر؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أباك[٨٦]، فمحددات الاهتمام الوظيفي بمكانة الام كما ذكرنا له أولويته في الحضور كنشاط اخلاقي وتهذيبي تدفع به البواعث الوجدانية القارَّة في نفوس الابناء. ومثل ذلك ماروي ان رجلا سأل رسول الله ﷺ قال:((يا رسول الله! هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما بعد وفاتهما؟ قال: نعم، الصلاة عليهما والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما)) [٨٧]، فالتأكيد على وظيفة العناية والمتابعة هو معنى ضامن لتكامل الاحساس بقيمة الابوين الكبرى، ليس في الدنيا فحسب بل استمرار رد الجزاء الى ما بعد نهايات الحياة لهما بالصلاة والاستغفار وتنفيذ عهودهما واكرام معارفهما وصلة ارحامهما . وفي الحقيقة أنَّ تلك القيمة الوظيفية هي رؤية مكتنزة بالتماسك الروحي والاجتماعي لهوية الفرد المسلم رغم التحولات الثقافية والمتغيرات السريعة في الواقع.

٨٤ الطبرسي، مكارم الأخلاق، ج١، ٢٧٢.
٨٥ شوشة، لغتنا الجميلة، ٢٢١.
٨٦ المجلسي، بحار الأنوار، ج٧١، ٤٩.
٨٧ الريشهري، ميزان الحكمة، ج٤، ٦٧٤.

والتنشئة الاجتماعية الصحيحة قيمة سلوكية تغير نمط الحياة الى منحى فاعل في التصرفات والرؤى، بما يضمن تحقيق بنى اجتماعية على مستوى عال من الادراك والوعي والتأثير، ومن ذلك توقير الوالد وإجلاله قال النبي ﷺ في حق الاب على الابن : ((أن لا يسميه باسمه، ولا يمشي بين يديه، ولا يجلس قبله، وقد أجاب رسولُ الله ﷺ لَمّا سُئِلَ عَن حَقِّ الوالِدِ على وَلَدِهِ؟ قال ﷺ: ((لا يُسَمِّيهِ باسمِهِ، ولا يَمشي بَينَ يَدَيهِ، ولا يَجلِسُ قَبلَهُ، ولا يَستَسِبُّ لَهُ)).[٨٨]، فالاستعداد الطبيعي اللازم يظهر من خلال تلك السمات لتحقيق وظيفة التربية السليمة من خلال عدم المناداة باسم الوالدين، او سبقهما في السير أو الجلوس قبلهما، لأنَّ الانتماء لتلك السوكيات جديرٌ بالالتحام الذاتي على مستوى العائلة، وكفيل بخلق الرحمة الحميمة في البنية الاجتماعية .

ووظيفة اللين والتسامح وسيلة من وسائل التماسك العائلي، توجب حفاظ النظام الاسري، وتمنع انهيار العلاقات الحميمة من خلال صيغ المحبة والتغاضي التي تحل محل نظام التفكك والانكفاء، من هنا اكَّد النبي ﷺ منطق الصبر على المرأة السيئة تلك الوظيفة الجوهرية للتعبير عن خاصية بشرية قادرة على النظر الى جزاء ذلك الفعل أخرويا، وفي الوقت نفسه إبداء فرصة من التحمل بلا نزاع رغبة في تشكيل تصالح قائم على التعارف العاطفي المشترك دون اللجوء الى ازاحة من الانفصال . يقول ﷺ : ((ألا ومن صبر على خلق امرأة سيئة الخلق واحتسب في ذلك الاجر أعطاه الله عزوجل ثواب الشاكرين في الآخرة، ألا وأيما امرأة لم ترفق بزوجها وحملته على ما لا يقدر عليه وما لا يطيق لم تقبل منها حسنة وتلقى الله (وهو) عليها غضبان[٨٩]، وفي هذا يقول الشيخ القرشي : ((إنَّ الإغضاء والتسامح وعدم المقابلة بالمثل تعود على الاسرة بأربح النتائج فانَّها توجب أنْ تعيش الاسرة في جو من الود والوئام))[٩٠].

وفي قول رسول الله ﷺ : ((رحم الله من أعان ولده على بره، قال: قلت: كيف يعينه على بره؟ قال: يقبل ميسوره ويتجاوز عن معسوره ولا يرهقه ولا يخرق به))[٩١]، مشهد واضح على تقنين وظيفة العاطفة والصحبة المستلزمة للبر من خلال الاقناع على الطاعة، فالعلاقات العاطفية

٨٨ الطبرسي، مكارم الاخلاق، ٢٨٣.
٨٩ الطبرسي، ٢٧٧.
٩٠ القرشي، نظام الاسرة في الاسلام دراسة مقارنة، ١٠٩.
٩١ الطبرسي، مكارم الاخلاق، ٢٨٧.

المملوءة بالحب لاتأتي جُزافا بل هي صناعة لها تأثيرها على إشباع الابناء بالقيم والاخلاق العالية، ومن ثم تُشكِّل بناءً مهما في تكوين العائلة المثالية .

وتبرز وظائف اخرى في نطاق محورية العائلة تنبثق من خلال الاسلوب، لإدامة فعل الاطمئنان التواصلي بين افرادها، قال النبي: ﷺ : ((فإنَّ اللهَ إذا أرادَ بأهلِ بيتٍ خيرًا أدخلَ عليهِمُ الرِّفقُ))[٩٢]، فالرفق في التعامل استراتيجية مركزية تمثل أساس الاستقرار في صناعة هوية العائلة على مستوى السلوك والتصورات وينتج عنه بنية خالقة لمعان من التلاقح الفكري نتيجة منطق الخطاب الفاعل في الحوار. وبلا شك أنَّ هذا القانون التواصلي الموسوم بالرفق هو صورة لمجتمعات ذات نظام حضاري كاشف عن عمق التشكيل الاسري ذي البناء السليم ازاء النماذج النسقية الاخرى ذات التشكيل غير المستقر استنادا الى غياب منطق الحوار الفاعل فيها .

وهناك وظائف تعكس الابعاد المعنوية في محيط العائلة وتحقق شرط ديمومتها كوظيفة الطاعة في القول والفعل ومافيهما من ثقافة تجمع رمزية العائلة في المنظور الاسلامي، فعن رسول الله ﷺ : من أحزن والديه فقد عقهما[٩٣]، وكذلك روي أن النبي ﷺ قال: بروا آباءكم تبركم أبناؤكم[٩٤]، فالتحذير من فعل العقوق والتأكيد على فعل البر بوصفه انعكاسا لفعل الابناء فيما بعد هو تكوين ثقافي يعتمد فعلا ونتيجة في سياق السنن التاريخية لديمومة الحياة،والترميز الى البعد الاخلاقي والاجتماعي في نسيج بناء العائلة، فإسعاد الوالدين وبرهما علامتان بارزتان لصناعة الهوية الاسلامية في نسق العائلة امام ثقافة مغايرة قد يختل فيها هذا المبدأ التواصلي .

ولا تنفصل الوظيفة في النظام العضوي لتشكيل العائلة عن تحولات الدور الوظيفي، فالبنية المنوطة بالوالدين امام الابناء لها حضورها في توجيهات النبي ﷺ كون التربية الاجتماعية تمنح دورا لكل افراد العائلة اتجاه الاخر وتخلق مفاهيم متنوعة في الدور والتوجيه، من ذلك قَالَ ﷺ: إِذَا نَظَرَ اَلْوَالِدُ إِلَى وَلَدِهِ فَسَرَّهُ كَانَ لِلْوَالِدِ عِتْقُ نَسَمَةٍ قِيلَ يَا رَسُولَ الله وَ إِنْ نَظَرَ ثَلاَثَمِائَةٍ وَ سِتِّينَ

٩٢ المجلسي، بحار الأنوار، ج٧١، ٣٩٤.
٩٣ الطبرسي، مكارم الاخلاق، ٢٨٥.
٩٤ الطبرسي، ٢٨٥.

نَظْرَةً قَالَ اَللهُ تَعَالَى أَكْبَرُ .[٩٥] وقال ﷺ: ((أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم يغفر لكم)) [٩٦]، فالسياسة التربوية هنا تكشف عن ضمانات ملازمة لفعل الوظيفة المنطلق من الاباء، فاستدامة فعل السرور واكرام الاولاد وتربيتهم يحقق انعكاسا في احداث تغيير نمط التربية بعيدا عن التخويف والترهيب ويمكن صيرورة اسرة تتكامل فيها الادوار ويسود فيها الاحترام والتوقير.

ويقول ﷺ : ((أحبوا الصبيان وارحموهم وإذا وعدتموهم شيئاً ففوا لهم فإنَّهم لا يدرون إلا أنكم ترزقونهم))[٩٧]، إذ ينجز الخطاب النبوي وظيفة مهمة تكمن في الوفاء بالوعد لانها ليست مجرد وظيفة عابرة تحقق المطلوب في وقت ومكان محددين، بل لانها قيمة عليا تردم الفجوة بين الصدق والكذب وتخلق النموذج القدوة الممثل للذات المحتذى بها، من أجل ان يفضي ذلك كله الى ولادة عائلة يتجلى فيها السلوك الصحيح وينتج المقدمات الاساسية للنشيء الفاعل في الحياة بعيدا عن الهوة السحيقة بين الآباء والابناء في القيم والاخلاق.

ولعلَّ من الصور الماثلة في الوظائف الكبرى للعائلة تنظيمَ السلوك الجنسي بوصفه سمة بارزة في النفس الانسانية تختلف في اندفاعها وقوتها بين الطرفين، وتحكمها ضوابط رادعة من الانفلات قد تكون دينية او اجتماعية او قانونية استنادا الى نوع المجتمعات وثقافتها، وبلا شك انها وظيفة عابرة للزمان والمكان وحدود الثقافات نتيجة فعلها الفطري المتمركز في النفس الانسانية . من هنا يلحظ تأسيس النبي ﷺ الى ضبط ذلك السلوك وتحصينه عبر النهي المحسوس والاثارة القيمية عند ارتكاب فعل الانحراف الجنسي، يقول: ﷺ : ((لا تزنوا فيذهب الله لذة نسائكم من أجوافكم، وعفّوا تعفّ نساؤكم، إنّ بني فلان زنوا فزنت نساؤهم))[٩٨]، فرمزية الزنا وما فيها من انعكاسات لاحقة تستحوذ على الرجل في عدم الاستئناس بالمتعة الحقيقية وانعكاس الاثر على صاحبه هي انساق صانعة للقبح بدلا من السكينة والجمال الروحيين .

ومن وظائف الرقابة على سلوك الابناء إحكام السلوك الجنسي وضبطه، والاهتمام بتمكين الوعي في هذا الجانب من خلال إبعاد كل متعلقات تلك الاثارة، سواء بالاختلاط أو النظر أو

٩٥ الطبرسي، مكارم الاخلاق، ٢٨٥.
٩٦ الطبرسي، ٢٨٨.
٩٧ الطبرسي، ٢٨٤.
٩٨ الطبرسي، ٢٣٨.

الدخول إلى أماكن العلاقة الزوجية بين الوالدين، لذلك نجد التركيز والعناية في مرويات النبي ﷺ : في هذا الموضوع : يقول ﷺ : ((فرّقوا بين أولادكم في المضاجع إذا بلغوا سبع سنين[٩٩]، وعِلّة التفريق بين الابناء في تلك المرحلة العمرية نابع من فلسفة النمو الحسي بالغريزة وما يحدثه من ضرر في الشعور عند التماس أو الملامسة الجسدية . وفي نص آخر يرد التحذير الاكثر وقعًا في مآلات الامور عند الرؤية أو السمع لما يخدش الحياء في العلاقة الزوجية وما فيها من حميمية، وضبط ذلك بالجزاء المتوقع للغلام أو الفتاة عند تلك المعاينة،يقول الرسول الأكرم ﷺ : ((والذي نفسي بيده لو أنّ رجلاً غشي امرأته وفي البيت صبيٌّ مستيقظ يراهما ويسمع كلامهما ونفسهما؛ ما أفلح أبداً؛ إن كان غلاماً كان زانياً، أو جاريةً كانت زانية))[١٠٠]، فتلك الصورة هي وصف تحذيري لفرز الفعل الجنسي عن كل آثاره داخل كيان الاسرة، بالمشاهدة أو السمع او غير ذلك. لأنَّ فكرة المعاينة تتحول إلى صورة ذهنية يختزنها الابناء ولن تتغير بمرور الوقت حتة تكون هاجسا لتداعي المشهد في كل نمط مشترك بين الرجل والمرأة.

وفي تفكيك خطاب النبي ﷺ في حواره مع شاب يرغب في الزنا، كما يروى : ((إن فتى شابًّا أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا! فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه! فقال: ادنه، فدنا منه قريبًا، قال: فجلس، قال: أتحبه لأمك؟، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: أفتحبه لابنتك؟، قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: أفتحبه لأختك، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم، قال: أفتحبه لعمتك؟، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لعمّاتهم، قال: أفتحبه لخالتك، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم، قال: فوضع يده عليه، وقال: اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصِّن فَرْجَه، فلم يكن بعد – ذلك الفتى – يلتفت إلى شيء))[١٠١]، يتجلى نموذج الحوار الاقناعي، من خلال اقناع المخاطب بان الرهان على فعل الزنا هو ممارسة مرفوضة لأنّه ذات علاقة بارتباطات لايمكن ان يقبلها الفرد لعائلته (أما أو أختا أو بنتا أو عمة أو خالة)، وبالتالي إقصاء هذا التفكير المنبثق

٩٩ الطبرسي،مكارم الاخلاق، ٢٨٩.

١٠٠ العامري، وسائل الشيعة، ج٢٠،١٣٣.

١٠١ بن حنبل، مسند الامام احمد بن حنبل، ٢٧٥ .

عن ذهنية جسدية لا تدرك آثار هذا الفعل بلغة هادئة يكسب الفرد خصالا وصفات تنخرط في التكوين العائلي الصحيح .

قال رسول الله ﷺ : ((ألا أُخبركم بخير نسائكم ؟ قالوا بلى. قال : إنَّ خير نسائكم الولود الودود الستيرة العفيفة، العزيزة في أهلها، الذليلة مع بعلها، المتبرّجة مع زوجها الحصان عن غيره، التي تسمع قوله وتطيع أمره وإذا خلا بها بذلت له ما أراد منها ولم تتبذّل له تبذّل الرجل))[١٠٢]، وهذا جنوحٌ إلى إشاعة وظيفة الانجاب والتكاثر مع متلازمات قيمية أخرى كاللطف والستر والعفة وهي قواعد اساسية منظمة لحياة مستمرة تتجلى فيها وشائج العلاقة وتنوع الادوار أكثر من العلاقة المنقطعة الامتداد في تناسل الذرية، فالإنجاب بوصفه وظيفة تسنده تلك الافضلية الخاصة بالمرأة الولود وتعزز فاعليته العادات والتقاليد والخطاب المتجذر القار في بنية الثقافة العربية بأنَّ الانثى العقيم تعمق الهوة بين الطرفين فتغدو غير مرغوبة أو مقبولة في النظام الاجتماعي العام. ((فلا عجب أنْ ينبِّه الاسلام الى ضرورة مراعاة انْ تكون الزوجية منتجة للأولاد.. فذلك الرجاء عند الاختيار وقبل الاقدام على الزواج بعد تنبيهه إلى اهمية مراعاة التمسك بالدين واخلاقه بوجه عام زيادة في تأكيد هذا الامر وشدة حرص منه على اهمية نجابة الاولاد وصلاح امورهم)) [١٠٣] .

١٠٢ الطبرسي، مكارم الأخلاق، ٢٠٠.

١٠٣ طه، نظام الاسرة في اليهودية والنصرانية والإسلام، ٧٧.

الخاتمة

١. لَّما كانت الاسرة أساس المجتمع والنواة الرئيسة في تشكيل هوية الافراد، استحقت أنْ تكون المظهر الابرز في الخطاب النبوي، بنسق يخلق دافعا لإعادة تشكيل بنيتها وفق منظوره ﷺ .

٢. اعادة قراءة تشكيل العائلة المشروعة ومركزيات التأسيس المبنية على تصورات سليمة تتمثل بمشروع الزواج ومنطلقات الاختيار الصحيح أفضى الى بلورة نوع من التمايز في تكوين العائلة النموذج من العائلة الفاقدة لمقومات البناء والصيرورة.

٣. استثمار اسس اختيار الزواج الصحيح في الممارسة الاقترانية تمثل نمطا دينيا وثقافيا واجتماعيا وسلوكيا في المنظور النبوي لانَّه تحول الى خاصية ترتفع بتشييد العائلة الصحيحة ذات الاسس القيمية الفاعلة في الحياة

٤. النزوع الى تأكيد انماط العلاقة في العائلة بصور تبادلية مشتركة بين الزوج والزوجة او الاباء والابناء وبالعكس، هو منحى اخلاقي له ايقاعه في ديمومة الترابط والانتاج والفاعلية وفق المزايا الطبيعية التي ينبغي ان تكون عليها كل عائلة نموذجية.

٥. كشف البحث عن لغة الخطاب الفاعلة واثرها في السلوك العائلي عند النبي ﷺ بوصفها ثقافة عالية اختزنت منظومة سلوكية من الود والمحبة المفضيتين الى نوع من التماسك المنتج لمفاهيم التوازن الاسري في بيئة لها خصوصيتها المعبرة عن اثر هذا التواصل في الاستقرار والفاعلية.

٦. التحول في الدور الوظيفي لأفراد العائلة لا يعني افراز سلطة احد على الآخر بقدر ما هو بيان لثقافة اخلاقية ذات قيمة عالية تعزز آصرة الالفة والترابط الحميم وتطبعه بسمات تحفيزية براس مال رمزي من الجزاء المذخور عند الحساب .

المصادر

القران الكريم

ابن منظور، لسان العرب، نسقه وعلق عليه ووضع فهارسه، علي شيري، دار احياء التراث العربي، بيروت- لبنان ، ط١ ١٤٠٨هـ.

البدوي، المجتمع والمشكلات الاجتماعية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٨.

بن حنبل، مسند الامام احمد، مؤسسة الرسالة، ط٢، ٢٠٠٨.

الترمانيني، الزواج عند العرب في الجاهلية والاسلام دراسة مقارنة، عالم المعرفة، ١٩٨٤.

جاك، الحضارة العربية، ترجمة غنيم عبدون، مراجعة أحمد الأهواني، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ط١ ، ٢٠١٧.

جباره، المشكلات الاجتماعية والتربوية، الاسكندرية دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٦.

الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق احمد عطار، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان ، ط٣، ١٤٠٤هـ .

الحبيل، فكر السيرة قراءة ثقافية معاصرة ، دار المشرق ، مصر- القاهرة، ط١، ٢٠١٧.

الحراني، تحف العقول، تحقيق، علي غفاري ، ط٢، ١٤٠٤هـ.

الخولي، مدخل الى علم الاجتماع ، دار المعرفة الاجتماعية ، ١٩٧٧.

الريشهري، ميزان الحكمة ، الناشر دار الحديث، توزيع دار احياء التراث العربي ، بيروت -لبنان ، ط١، ٢٠٠١.

السعداوي ، الانثى هي الأصل، المرأة والجنس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، مطبعة الديوان ، بغداد-العراق ، ط٦، ١٩٨٦.

سيد قطب، في ظلال القرآن ، دار الشروق ، القاهرة- مصر، ط١١، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

السيوطي، الدر المنثور، دار الفكر، بيروت- لبنان، ١٩٩٣.

الشرابي، النظام الابوي واشكالية تخلف المجتمع ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت- لبنان، ط٢، ١٩٩٣.

الشعراوي، فقه المرأة المسلمة ، المكتبة التوقيفية ، د.ت.

شوشة، لغتنا الجميلة ، دار العودة، بيروت- لبنان، ١٩٦٧.

الشيرازي، العائلة، مؤسسة الرسول الأعظم ﷺ ، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٧.

الطبرسي ، مكارم الاخلاق ، مكتبة الالفين ، الكويت، ١٤٠٧هـ.

الطبطبائي، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان، ط٣، ١٩٧٣.

طه، نظام الاسرة في اليهودية والنصرانية والإسلام، القاهرة- مصر ، ط٢ ، ٢٠٠٣.

ظاظا، اللسان والانسان مدخل الى معرفة اللغة، دار القلم دمشق، الدار الشامية، بيروت- لبنان، ط٢، ١٩٩٠.

العامري، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، تحقيق، ونشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط١، ١٤١٤ هـ.

العشي، رجال ونساء اسلموا ، مراجعة وتعليق، عبدالستار سعيد ،المكتب المصري الحديث، الطبعة الجديدة ٢٠٠١.

عمر، المراة والاسرة المسلمة من منظور غربي، مكتبة التفسير للنشر والاعلان ، أربيل-العراق ، ط١ ٢٠٠٨.

الغذامي ، القبيلة والقبائلية هويات ما بعد الحداثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء -المغرب، ط٢، ٢٠٠٩.

قاسم، الزواج والاسرة، مركز المصطفى ﷺ العالمي للترجمة و النشر، قم -ايران، ١٤٣٧هـ.

قرامي ، الاختلاف في الثقافة العربية الاسلامية دراسة جندرية، دار المدار الاسلامي ،ط١، ٢٠٠٧.

القرشي، نظام الاسرة في الاسلام دراسة مقارنة، دار الاضواء، بيروت- لبنان، ط١ ،١٩٨٨.

الكليني، اصول الكافي ، تحقيق، علي الغفاري، دار المرتضى ، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٠٥م .

ليوبولد فايس ، الطريق الى مكة ، محمد اسد، ترجمة، رفعت علي، منشورات دار الجمل، ٢٠١٠.

المجلسي، بحار الانوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، إحياء الكتب الإسلامية، إيران، د . ط ، د.ت.

المسيري، دراسات معرفية في الحداثة الغربية، مكتبة الشروق الدولية، ط١، ٢٠٠٦.

مونتجومري ، محمد في المدينة، تعريب، شعبان بركات، منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر ،صيدا - بيروت- لبنان، ٢٠٠٢.

النجفي، الاسلام والاسرة دراسة مقارنة في الاجتماع الأسري ، مكتبة مؤمن قريش، بيروت- لبنان، ط١ ، ٢٠٠٨.

النوري ، طبيعة المجتمع البشري في ضوء الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، مطبعة الآداب، بغداد- العراق ، ١٩٧٢.